

مكانة علم المنطق عند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي

La place de la logique dans le Cheikh Mohammed bin Abdul Karim Al-Mughili Al-Telmisani Al-Touat

الدكتور : إبراهيم بلبالي¹

¹ جامعة أحمد دراية أدرار، brahim01adrar@gmail.com

تاريخ الاستلام: 04 نوفمبر 2022 تاريخ القبول: 24 نوفمبر 2022 تاريخ النشر: 30 ديسمبر 2022

الملخص: يعد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي من العلماء المسلمين الذين اشتغلوا بعلم المنطق ودافعوا عنه في القرن التاسع الهجري ، فقد اختار القول بجواز الاشتغال به، وشارك في التأليف فيه بجملة مؤلفات ، وهي: شرحه لجمال الخونجي، ومقدمة في علم المنطق ومنظومة فيه، وثلاثة شروح عليها، كما دافع عنه ضد من يقول بتحريم الاشتغال به كالسيوطي، وهذا ما يدل على سعة اطلاعه ونبوغه في العلوم العقلية إلى جانب العلوم النقلية، امتاز الشيخ المغيلي بسعة اطلاعه وتنوع العلوم التي حصلها، فإلى جانب العلوم النقلية كانت له مشاركات في العلوم العقلية. وهذه المكانة التي بلغها الشيخ المغيلي إنما هي نتاج كثرة شيوخه وشدة نهمة في طلب العلم والاستزادة منه. فقد تأسى بهم في الأمر، غير أن طريقة تأليفه لم تخرج عن ما ساد في ذلك العصر من النظم والشرح والاختصار ونحو ذلك.

الكلمات المفتاحية: المغيلي؛ علم المنطق؛ العلوم العقلية؛ علماء الجزائر

Abstract:

Sheikh Muhammad bin Abd al-Karim al-Mughili is considered one of the Muslim scholars who dealt with the science of logic and defended it in the ninth century AH. He also defended it against those who say that it is forbidden to work with it, such as Al-Suyuti, and this indicates his extensive knowledge in the intellectual sciences as well as the religious sciences. He had interested in intellectual sciences. This was reached by Sheikh Al-Mughili as the result of the large number of his sheikhs (teachers) and the intensity of his patience to seek knowledge and looking for more and more. They didn't know much things in the matter, but the method of composing it did not depart from what prevailed in that era of organization, explanation, abbreviation, and so on.

Keywords: al-Mughili; logic; intelectual sciences; Algerian

مقدمة:

عاشت الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انحطاطا فكريا وثقافيا كبيرا، بسبب السياسة الفرنسية التعسفية والاضطهاد الذي مارسه على الشعب في كل الجوانب منها الجانب التعليمي، فاخفتت المراكز العلمية والمدارس وأصبح المعمرون هم المسيطرون على مصدر القرار بينما أصبح الجزائري يعيش في بلاده على الهامش، فهاجرت أغلب العائلات الجزائرية الكبيرة ذات النفوذ المالي والعلمي، وانتشر العلماء الجزائريون في أقطار مثل تونس والمغرب وحتى المشرق العربي سواء كانت هذه الهجرة طوعية أو إجبارية من خلال النفي من قبل السلطات الفرنسية، فاختلف التوازن في الجزائر وانتشر الجهل بين الجزائريين. لكن هناك فئة قليلة من العلماء قهرت الصعاب وتكيفت مع الأمور وبقيت تناضل وتجاهد في بلادها، وهم الذين سيقودون بوادى النهضة في الجزائر من بينهم الشيخ عبد الحليم بن سماية، الذي أثر البقاء في بلاده لتعليم شعبه وتثقيفهم، فإلى ترى ما هو الدور الذي لعبه الشيخ عبد الحليم بن سماية؟ وكيف كان منهجه في إصلاح المجتمع الجزائري ؟

1- مسار العلامة عبد الحليم بن سماية :

ولد الشيخ عبد الحليم بن سماية في عام 1866 بالجزائر. وكانت هذه المدينة تضم عددا كبيرا من المساجد، وكانت ساحة الشهداء بالخصوص زاخرة بالجوامع التي تقدم فيها الدروس في مختلف العلوم الشرعية، يشرف عليها نخبة من العلماء. ففي هذه البيئة تربى وعاش عبد الحليم بن سماية طفولته وشبابه؛ فتلقى تعليمه الأساسي على يد والده الشيخ علي بن سماية بجامع سفير¹

¹ عباس فرحات، ليل الاستعمار، ترأب بكر النحال، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009، ص113

من خلال تقريرين هامين عن المفكر عبد الحليم بن سماية سنحاول الغوص في فكر هذا الأخير وما أضافه لحقل التربية والتعليم في الجزائر.

التقرير الأول لويليام مارسي الذي يعود إلى سنة 1907 - 1906 والذي يصفه بفصاحة اللسان وحرية الفكر وسلامة اللغة، وأن مستوى درسه في المسجد يساوي مستوى درسه في المدرسة، أما تقرير 1912 فيذكر أن دروس الشيخ تقام كل يوم من الساعة العاشرة إلى الحادية عشر ماعدا يومي الجمعة والسبت بالنسبة للدروس العامة، أما بالنسبة للدروس الخاصة فخصص لها يومي الثلاثاء والأربعاء من الساعة الرابعة إلى الخامسة، وتراوح عدد الحضور في الدروس العامة بين عشرة وستة وثلاثون شخص، وبالنسبة للدروس خاصة فكان يحضرها خمسة عشر شخص بشكل منتظم، وكانت المواد التي يدرسها الشيخ في الدروس العامة هي شرح الأحاديث وتفسير سور من القرآن، وبالنسبة للدروس الخاصة فمواد تدريسها هي نصوص من كتاب المستظرف ومن كتب الفوائد كما قدم الشيخ بن سماية دروسا كثيرة في الوعظ والإرشاد والتفسير في الجامع الكبير، فيذكر محمد الخضر حسين عند زيارته للجزائر سنة 1904 أنه اجتمع بالشيخ بن سماية وحضر دروسه في الجامع الكبير، منها تناوله مبحث صفة الكلام وقد ذاع صيته بين الناس وأصبح الكثير من الناس يحضر دروسه، قررت السلطات الفرنسية احتواء الشيخ بن سماية، وذلك من خلال دعوته إلى التدريس في المدرسة الحكومية، وهي سياسة تستعملها فرنسا لاحتواء جميع العلماء الذين تلمس فيهم الفطنة والغيرة على الوطن، وبدوره قبل ابن سماية التدريس في هذه المدرسة بسبب وجود عدد كبير من المسلمين، بالإضافة إلى تطبيقها نظاما عصريا في التعليم، فأدرك أن دوره يكون أكثر فاعلية وتأثير في الجيل الجديد في المدرسة أكثر من أن يكون خارجها فهم نخبة المستقبل، كما رأى أنه إذا لم يقبل بالوظيفة الرسمية فإن السلطات الفرنسية سوف تضيق عليه نشاطه، وبذلك يكون مراقبا ومستهدفا، فانخرط فيها سنة 1896 وعمره آنذاك حوالي 30 سنة، وكان دور هذه المدرسة الحكومية تخريج الموظفين من القضاة والمترجمين قبل بناء المدرسة الثعالبية التي انتقل إلى التدريس فيها سنة 1905، وكانت هذه المدرسة تدرس باللغة العربية

إلى أن يعتبر الشيخ بن سماية من محبين للكتب وجامع للمخطوطات النفيسة، حيث ورث بعض الكتب على والده الشيخ علي بن سماية، والبعض آخر اشتراه من ماله الخاص إذ كان لا يسمع بكتاب إلا ويصل إليه، إما أن يشتريه أو يستنسخه، وكانت مكتبته تحتوي على آلاف الكتب والمخطوطات النفيسة المتنوعة، لكنها ضاعت كلها في آخر عمره حيث استغل بعض أشباه العلماء مرضه في الفترة الأخيرة، واستعاروا منه كتباً فسرقتها وهربت بعضها إلى باريس فضاعت مكتبة الشيخ التي كانت مليئة بأنفس الكتب.² ويشكل مع مجموعة من العلماء أمثال عبد القادر المجاوي، مصطفى بن الخوجة، أبو القاسم الحفناوي، صالح بن مهنا، المولود بن الموهوب، حمدان الونيسي الصفحة الأولى في سجل الحركة الإصلاحية الجزائرية. ودرس اللغة العربية والعلوم الشرعية على الشيخ السعيد بن زكري، وعلم الفلك والتاريخ على الشيخ أبي القاسم الحفناوي صاحب الكتاب المفيد "تعريف الخلف برجال السلف". ثم انتقل إلى تونس لدراسة الفلسفة على يد الشيخ محمد بن عيسى الجزائري

² يوسف مناصرية، دور النخبة الجزائرية في الحركة الوطنية بين الحربين، دار هومه، الجزائر، 2013، ص 56

وفي عام 1896 عين مدرسا بالمدرسة الرسمية الثعالبية، ثم استخلف والده بالجامع الكبير في عام 1900 في تعليم القرآن والعلوم الشرعية واللغوية. فدرّس "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للجرجاني، و"المفصل" للزمخشري، و"البصائر النصيرية في المنطق" لابن سهلان، "الاقتصاد في الاعتقاد" لأبي حامد الغزالي، و"تلخيص المفتاح" للقزويني³. وكان من أبرز تلاميذه والملازمين لدروسه العالم والمحقق الدكتور محمد بن أبي شنب، الدكتور محمد بن العربي أول جزائري تحصل على شهادة الدكتوراه في الطب، والشيخ عبد الرحمان الجيلالي المؤرخ والفقيه المعروف.

وكتب الشيخ عبد الحليم بن سماية في بعض الصحف العربية الجزائرية: المغرب (1903-1904)، كوكب إفريقيا (1907-1914)، الإقدام (1920-1923) باسمه الحقيقي وبأسماء مستعارة.

ولا ندري إن كتب في الجرائد التونسية: "الوزير" و"المشير" و"الحاضرة" التي نشر فيها المثقفون الجزائريون مقالاتهم وأشعارهم خاصة في بدايات القرن العشرين قبل بروز جرائد عربية حرة بالجزائر.

نشر الشيخ بن سماية رسالة عن الربا في سنة 1911 بعنوان: "اهتزاز الأطواد والربى في مسألة تحريم الربا"، لكن لم يبقى لها أثر. ولحسن الحظ اطلع عليها تلميذه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي، وقال عنها: "هي رسالة غزيرة المادة في موضوعها. استوعب فيها المؤلف أصول هذا الباب، دعا فيها علماء الإسلام قاطبة إلى تحمل مسؤولياتهم أمام هذا الموضوع الهام." ونشر كتابا آخر في سنة 1913 بعنوان: "الكنز المكنون." واهتم بالفلسفة والمنطق حتى صار ملما بمدخل هذا العلم وعارفا بأسراره. وقال في هذا الشأن الأستاذ أحمد توفيق المدني الذي سألته أن يحدثه في المنطق، فأجاب: "خذ ورقة واكتب: وسرعان ما أهذت الورقة والقلم، وأخذ يملئ عليّ بلهجة علمية قاسية وفصاحة عربية نادرة وصوت جهوري تناسقت نبراته كما تناسقت عباراته، خلاصة وافية لعلم المنطق، بتعريفاته، وكلياته، وأقسامه وأمثاله، وأطال الإملاء وأطلت الكتابة إلى أن ملأت عشرورقات، وكلت يدي من الكتابة، وقلت بعد ساعة: يكفي هذا الدرس الأول ولنترك الدرس الثاني إلى فرصة أخرى." وشارك الشيخ ابن سماية في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين في عام 1905 بالجزائر، وقدم بحثا بعنوان: "الحضارة

³ عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، 1931-1945 م، ص74.

الإسلامية والفلسفة. "وكان مهتما أيضا-على غير عادة علماء عصره- بمقارنة الأديان، فكان يقرأ الإنجيل والتوراة ويجادل علماءها وقد وعد الشيخ عبد الحليم بن سماية صديقه الشيخ محمد الخضر حسين (1873-1958) بالكتابة في مجلة هذا الأخير التي تسمى "السعادة العظمى" حينما دعاه هذا الأخير للمساهمة في هذه المجلة بمقالات وبحوث⁴.

فقد أعجب بأفكار ابن سماية ودروسه وتمنى أن يدونها حتى لا تضيع ويحرم منها كثير من الناس. فأفكار الشيخ بن سماية التجديدية ومعارفه العلمية الواسعة جديدة بأن يطلع عليها القراء في الجزائر وفي البلدان الإسلامية الأخرى ، وقد كان الشيخ عبد الحليم بن سماية يشد إليه الرحال. فزاره العلماء الذين كانوا يوفدون على الجزائر العاصمة من المناطق الداخلية أو من خارج البلاد. فقد استقبل الإمام محمد عبده خلال زيارته إلى الجزائر عام 1903. ونملك اليوم صورة التقطت للرجلين مع بعض علماء وأعيان العاصمة⁵.

ويرى الباحث الدكتور علي مراد أن الشيخ بن سماية هو أكبر المتأثرين بأفكار محمد عبده وسعى من خلال منصبه بالمدرسة الثعالبية إلى الترويج لها بين طلبته الموجهين نحو الوظائف الإدارية والقضائية والدينية.

كما راسل الإمام عبده بعد رجوعه إلى مصر. ونشر الشيخ محمد رشيد رضا هذه الرسالة مع قصيدة في كتابه "تاريخ الإمام"⁶.

وقال فيها الشيخ بن سماية عن الشيخ محمد عبده: "هذا الرجل الجليل رجل حنكته تجارب الزمان، واستقصى أحوال الأمم حتى ميّز منها ما زان وما شان، وتطلع من الفنون على اختلاف أنواعها، ومواضيعها، وأعمل فكره أعمق تفكر وتدبر في الحبل المتين والقرآن المبين".

وزاره أيضا العالم الزيتوني الشيخ محمد الخضر حسين في سنة 1904 في رحلته إلى الجزائر. وكتب عند عودته إلى تونس عن إعجابه بشخصية الشيخ ابن سماية وعلمه.

⁴ المرجع السابق، ص77

⁵ عادل نويعض، معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى الحاضر، مؤسسة نويعض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، 1. ط2، 1980، ص245.

⁶ نفس المرجع السابق، ص133.

وقال في هذا الصدد: "التقينا بالشيخ عبد الحليم بن سماية، فغمرنا بنفحات خلقه الناضر، واختلى ألبابنا بفصاحة لسانه الساحر." وجالسه في بيته في مسامرة دامت 6 ساعات.

ويقول الشيخ الخضر بعد هذه المجالسة: "كلام يشهد لصاحبه بسلامة الذوق والولوع بالكشف عن أسرار المسائل دون الاكتفاء بتصوراته المجردة".

كما ينبغي أن نشير إلى أن للشيخ عبد الحليم بن سماية 1865 - 1915 م مواقف معروفة في محاربة البدع في الجزائر، وأنه من أوائل تلاميذ الأستاذ محمد عبده الذين نشروا المذهب الإصلاحية خارج مصر، حيث الشيخ ابن سماية يدرس رسالة التوحيد للإمام محمد عبده في المدرسة الثعالبية، وقد كان من المعجبين بالشيخ محمد عبده وبطريقه في الإصلاح وذكر الشيخ رشيد رضا في كتابه " تاريخ الإمام محمد عبده " إن الإمام محمد عبده عندما زار الجزائر، وتونس في صيف 1903 م وجد له ومن الذين تأثروا، بمدرسة الإمامين محمد عبده ورشيد رضا، قدور 4 حزبا دينيا كونته مجلة المنار.⁷

2-المواقف السياسية للعلامة عبد الحليم بن سماية:

يشكل الشيخ عبد الحليم بن سماية مع مجموعة من العلماء والمثقفين كالشيخ عبد القادر المجاوي والشيخ المولود بن الموهوب وعمر بن قدور وعمر راسم... كتلة المحافظين التي تعاطفت مع فكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده.

وتعاونوا مع مجموعة من السياسيين المتنورين أمثال محمد بن رجال وأحمد بوضربة والشريف بن حبيلس للمطالبة بتحسين الأوضاع الاجتماعية والتعليمية والسياسة للجزائريين؛ فطالبوا بإلغاء قانون الأهالي وإعادة نظام القضاء الإسلامي، واحترام التقاليد الجزائرية، والسماح لهم بحرية التنقل والسفر خاصة إلى المشرق العربي.

⁷ يسلي مقران ، الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل (1920-1945م) ، دارالأصل للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص167.

تزعّم الشيخ عبد الحليم بن سماية حركة المعارضة لقانون التجنيد الإجباري. فترأس جلسة يوم 25 جويلية 1911 بقاعة المجلس البلدي بالعاصمة، وحضرها أعيان المسلمين وتحدث باسم الوفد معربا عن رفضهم الجميع لمشروع التجنيد الإجباري⁸.

ونملك اليوم معلومات دقيقة عن هذه الجلسة ومداخلة الشيخ بن سماية بفضل المقال الذي نشره الصحافي والمصلح الجزائري المعروف عمر بن قدور في جريدة "الحضارة" الصادرة في آستانة بتركيا. وقد عثر عليه الدكتور صالح خرفي وأعاد نشره ضمن كتابه: "عمر بن قدور الجزائري" الصادر في عام 1984 عن المؤسسة الوطنية للكتاب.

ونذكر هنا هذه الفقرة من هذا النص وهي تكشف عن وقائع هذه الجلسة التاريخية: «تقدم واستدل بآيات قرآنية على أن المسلمين إذا أدوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسية لا يكونون مسلمين بجميع معاني الكلمة، ولا نالوا من الحرية ما يخول نبغاءهم التربع في دست رئاسة الجمهورية ودعا جنابه أن الحرية والحقوق السياسية إذا منحت للمسلمين مقابل تجنيدهم تكون هناك الضربة القاضية على القومية الدينية والسياسية إذ يقع اندماجهم بالأمة الفرنسية نهائيا».

وقد أبدى الشيخ بن سماية معارضته للتجنيد الإجباري للاعتبارات الدينية والاجتماعية التالية:

- محاربة إخوانهم المسلمين وهذا ما يتعارض مع تعاليم الدين الإسلامي.
- عدم قدرة المجندين المسلمين على ممارسة شعائرهم الدينية بإجبارهم على الإفطار في رمضان وتأخير الصلاة.
- تحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع مكون من طبقتين متميزتين: المجندون وغيرهم.

⁸ سلسلة جهاد شعب الجزائر - ج ضحية من ضحايا الاستعمار الشيخ عبد الحليم بن سماية - المكتبة الشاملة الحديثة. ص 77

ومن مواقفه الجريئة: إصداره لفتوى بعدم جواز محاربة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى لأنها مسلمة ويرتبط بها الجزائري برابطة دينية وولاء روعي بحكمها تمثل الخلافة الإسلامية.

3-اهتمام العلامة عبد الحليم بن سماية بالفنون :

اهتم الشيخ بن سماية بالعديد من الفنون والمعارف الأخرى فهو يمتاز بفصاحة أدبية مكنته من الإبداع في فن الخطابة والوعظ، ولم يهمل الشيخ بن سماية فن الشعر رغم تركيزه الكبير على التعليم ودروس الوعظ والإرشاد، حيث كان من حين إلى آخر يكتب أبياتا شعرية إذا اقتضى الأمر، فله العديد من الأبيات الشعرية في المدح تمتاز بأسلوبها الجيد كأنصاحها شاعر متمكن، مثل القصيدة التي بعثها إلى الشيخ محمد عبده يمدحه فيها والتي تتكون من خمسين بيت نشرها محمد رشيد رضا في مجلة المنار.

كان بن سماية مولعا بالموسيقى حيث يذكر أحد تلامذته وهو عبد الرحمن بن دالي، أنه خلال دراسته عند الشيخ بن سماية أحضر لهم آلة العود حيث أظهر لهم مهارة فائقة في عزف الألحان المتنوعة، وأراهم الفرق بينها وبين لهم أنواع الأوتار وأسماءها، كما أنه كان يعرف الألحان الأندلسية مثل عراق وماية وزيدان وصيكة وغيرها من الألحان الأندلسية المتنوعة.

يعتبر الشيخ بن سماية من محبين للكتب وجامع للمخطوطات النفيسة، حيث ورث بعض الكتب على والده الشيخ علي بن سماية، والبعض آخر اشتراه من ماله الخاص إذ كان لا يسمع بكتاب إلا ويصل إليه، إما أن يشتريه أو يستنسخه، وكانت مكتبته تحتوي على آلاف الكتب والمخطوطات النفيسة المتنوعة، لكنها ضاعت كلها في آخر عمره حيث استغل بعض أشباه العلماء مرضه في الفترة الأخيرة، واستعاروا منه كتباً فسرقوها وهربت بعضها إلى باريس. فضاعت مكتبة الشيخ التي كانت مليئة بأنفس الكتب.⁹

4-مرض العلامة عبد الحليم بن سماية ووفاته :

⁹ سلسلة جهاد شعب الجزائر - ج ضحية من ضحايا الاستعمار الشيخ عبد الحليم بن سماية - المكتبة الشاملة الحديثة. ص 93

وتعرض الشيخ عبد الحليم بن سماية لمضايقات واضطهاد سلطات الاستعمار وأصيب جراء ذلك بمرض عقلي لازمه حتى وفاته في 7 رمضان 1351 هـ الموافق ل 4 جانفي 1933 م، ودفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي.

وخصصت له مجلة "التلميذ" التي كانت تصدرها الجمعية الودادية للتلاميذ المسلمين بإفريقيا الشمالية عدة صفحات. وكتب عنه تلميذه الشيخ أبو عبد الله محمد الحسن الحجوي مقالا طويلا ذكر فيه جوانب من حياته وأعماله.

وقد وصفه بأنه كان «حسن المحاضر، فكه المجالسة، متين السند ونقلت مجلة "الشهاب" الإصلاحيية خبر وفاته. كما وصفته بما يليق بمقامه الكبير وعلمه الغزير ونضاله المستميت في سبيل دينه ووطنه.

فهو في نظر الشيخ ابن باديس: «عالم عامل، غيور على دينه ووطنه مخلص لهما قضى حياته مدرسا بالمدرسة الثعالبية فبث روحا طيبة فيمن اتصلوا به من تلامذتها معظما محترما عند زملائه فيها وعند رؤسائها. (<https://shamela-dz.net/tag>) ومرة أخرى، أذكر حادثا وقع لي، عرفني بعالم جليل، ومنه عرفت ما آل إليه حال الذين رفضوا التعامل مع الاستعمار. ولم يركنوا إليه. والذين اختنقت أنفاسهم بما لاقوه من مرارة ظلم وإرهاق ... كنت على موعد معه في مزرعة السيد محمد بن الأكحل، غير بعيد عن بلدة الأربعاء. ودخلت المكان مع صاحب الدعوة. وكان الشيخ يتوسط القاعة، وكأنه بجلاله وهيبته يحتل كامل الغرفة ... كان حقا شيخا جليلا، قام للسلام علي، ولم تتغير ملامحه، ولم تبد على وجهه أدنى بشاشة ... قال لي: مرحبا بك. ثم سكت طويلا، ولا يتحرك، ولا يبدي إشارة - ليشارك في الحديث - حتى كأنه صورة مجسمة من الشمع الملون. قلت للسيد محمد بن الأكحل هامسا: أهذا هو الشيخ عبد الحليم بن سماية، العالم الشهير، الذي طبق صيته آفاق العالم الإسلامي؟ قال لي: نعم. وهذه هي حاله منذ أن أصبح ملازما للوحدة والعزلة، وستكون محظوظا إن أنت ظفرت منه بكلمة. قلت: ومنذ متى وهو يلزم هذه الحالة؟ قال لي: منذ بدأت الأحاديث تتردد عن احتفال فرنسا بصفة صاخبة بمرور مائة عام على احتلالها الجزائر. (كتاب سلسلة جهاد شعب الجزائر، ضحية من ضحايا الاستعمار الشيخ عبد الحليم بن سماية، المكتبة الشاملة الحديثة) فهمت. وعلمت أن الرجل البائس يكاد يقتله الهم والحزن، وأن سكوته هذا هو نوع من الفرار من الدنيا. ولكنني اتجهت إل يترك لنا ابن سماية مؤلفات كثيرة نظرا لتفرغه الدائم

لمهنة التدريس في المدرسة والجامع، بحيث كان يكرس كل وقته لتكوين الأجيال القادمة، لكنه استطاع بفضل حسن إدارته للوقت وتنظيمه أن يترك لنا بعض المؤلفات القليلة إلا أنها مفيدة، منها ما بقي ومنها من اندثر بفعل العديد من العوامل نذكر منها مخطوط يوجد بالمكتبة الوطنية بالحامة عنوانه "شرح (الشيخ عبد الحليم بن سماية على مفهومة الشيخ المكي بن عزوز" يتكون من 52 ورقة، ويذكر عبد الرحمان الجبالي بعض المؤلفات الشيخ منها رسالة في أحكام الربا، كتبها ليرد على بعض العلماء الذين حللوا الربا في بعض الجرائد وهي تحت وعنوان " اهتزاز الأطوار والربى من مسألة تحليل الربا "، وهي رسالة مطبوعة سنة 1911 تناول فيها أصول باب الربا وفروعه، كما دعا فيها علماء الإسلام قاطبة إلى تحمل مسؤولياتهم في مسائل الفتوى وعدم انسياقهم وراء الضغوطات، وله أيضا كتاب حول "فلسفة الإسلام" الذي قدمه في مؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد بالجزائر سنة 1905 حيث يقول عنه عمر راسم "ولما فيه من الحقائق النيرة لم ترض الحكومة بطبعه".¹⁰

لقد عاش الشيخ بن سماية طورين في حياته، الطور الأول هو طور العطاء وتربية الأجيال، والطور الثاني عاشه في آخر عمره حيث أصيب بمرض عقلي وراثي سنة 1924 سببه حماسه الشديد وكرهه الدفين للاستعمار وجهاده العلمي الذي أرهقه عقليا، لأنه كان يحمل هم أمة في قلبه ويتحسر على ما يحدث للجزائر والمسلمين، وشفي الشيخ في البداية من هذا المرض لكن ما لبث أن عاد إليه من جديد سنة 1928، فأحيل على التقاعد وأعفته الثعالبية من التدريس، فأصبح الشيخ غير مبالي بنفسه ولا يلتفت إلى مظهره وسلوكه وحياته اليومية، فاتخذ لمركبه حصانا وسيفا وأخذ يتجول ما بين أرباض العاصمة وأحيائها، وتارة يسافر إلى المدن المجاورة مثل البليدة وشرشال والقليلة والمدية ولا يبالي أين أدركه الليل أو أين ينام أو حتى أين تطلع عليه الشمس، في هذه الفترة بدأ الشيخ بن سماية بإخراج مكبوتاته دون تردد- إذ يبدو أن الشيخ بن سماية كان من النوع الكتوم - وهي مكبوتات دفنها معه ولم يستطع البوح بها أو التعبير عنها لما كان مدرسا تحت إمرة السلطة الفرنسية، حيث وقعت له عدة حوادث عبر فيها على ما كان يدور في خاطره دون مبالاة أو خوف ويتحسر فيها على حال قومه من التخلف والجهل والاضطهاد الذين يعيشون فيه رغم مرض الشيخ إلا أنه كان يخوض في

¹⁰ <https://shamela-dz.net/?tag> تاريخ التصفح : 2021-03-12

مواضيع الإصلاح الديني ، والدعوة إلى العلم التي كانت دائما تشغل باله، ووقعت للشيخ حادثتين عبر فيهما على ما يجول في خاطره بصراحة، الأولى أن جماعة من الشباب لقوا الشيخ فسألوه على حكم لبس الذهب بالنسبة للرجال، فقال لهم لا بأس بهم، فقالوا له أن الإسلام حرمة، فرد عليهم الشيخ صارخا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال " الذهب و الحرير حلالان لنساء أمتي، محرمان على ذكورها " وأنتم لستم ذكورا، لستم رجالا"، فهو يوبخهم على أنهم رضوا بالاستعمار ولم يحاربوه، والحادثة الثانية أنه كان يتجول بفرسه في شوارع العاصمة فوصل إلى ساحة الحكومة، حيث تمثال القائد الذي غزا الجزائر - دي بورمون - والذي يحترمه الفرنسيين ويمنعون أي شخص يتقرب منه، فاقتحم الشيخ الساحة ووقف عند التمثال، فأفرغ حصان الشيخ فضلاته في الساحة، فجاء إليه الشرطي فأخبره أن فرسه لوث المكان وأنه ممنوع على الدواب دخول هذا المكان، فأشار الشيخ إلى تمثال وقال له : يا هذا إن فرسكم هذا واقف منذ مئة عام يطل على أكبادنا فصبرنا له، وأنت لم تصبر ربع ساعة على فرسي فأغرب عني" فما كان من الشرطي إلى أن انصرف، إن هذه التعابير تدل على الكبت الكبير الذي كان يعيشه الشيخ متحملا على نفسه ومتحسرا على مصير أمته فأفرغ ما كان في جعبته أواخر عمره وفي أواخر سنة 1932 وبحلول شهر رمضان، اجتمع أهل الحامة ببلكور الواقعة بالعاصمة، وتوجهوا إلى الشيخ بن سماية لكي يعقد لهم مجالسا دينية ليلية في الشهر الفضيل بجامع زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، ويكون زمن الدرس بين العشائين فوافق الشيخ على طلبهم، وشرع في تدريس رسالة أبي زيد القيرواني من أول رمضان وذلك لمدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس أتى الشيخ كعادته ليقدم الدرس وفي أثناء ذلك شعر الشيخ بفطور، فالتف حوله عامة الناس وأسعفوه وأخذوه إلى منزله، وما إن رجع القوم من منزله حتى توفي الشيخ، وذلك ليلة الخميس يوم 2 جانفي 1933 الموافق ل 5 رمضان 1351 ودفن في مقبرة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي تأثرت العديد من الشخصيات بموت الشيخ بن سماية منها الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي رثاه في مجلة الشهاب حيث قال عنه أنه " عالم عامل، غيور على دينه ووطنه مخلصا لهما، قضى حياته مدرسا بالمدرسة الثعالبية، فبث روحا طيبة فيمن اتصلوا به من تلامذتها. معظما محترما عند زملائه فيها وعند رؤسائها، فرحمه الله وجزاه عن العلم وخدمته واحترامه والاعتزاز به خيرا وعزى أهله وأهل العلم فيه خير العزاء "،

بالإضافة إلى ذلك بعث تلميذه في المغرب الأقصى أحمد بن محمد التجاني رسالة تعزية نشرت في مجلة التلميذ تحت عنوان " دمعة على فقيد الجزائر المسلمة " حيث وصفه تلميذه بعالم الأتقياء وتقي العلماء، كما ذكر في هذه الرسالة مناقب الشيخ من جهاده في الإصلاح وقوة فصاحته وبلاغته وجهاده في سبيل نشر العلم.¹¹

5- خاتمة :

في الأخير وما يمكننا أن نستخلصه من منهج العلامة مايلي:

- ❖ أن بن سماية قضى حياته كاملة في التعليم أربعين سنة في التدريس، وركز كل جهوده في محاولة تنشئة أجيال، بحيث كان هدفه بناء جيل قادر على تحرير الجزائر فيما بعد، كما لم يهمل كبار السن حيث كان يقدم دروس وعظ وإرشاد في المساجد والتجمعات .
- ❖ أعتمد منهج بن سماية على الجانب التطبيقي بحيث كان يحاول تطبيق مناهجه قدر المستطاع لتوصيل الأفكار لتلاميذه مثل دروس الموسيقى حيث كان يجلب معه الآلات الموسيقية.
- ❖ تبنى الشيخ بن سماية فكر الجامعة الإسلامية الداعي إلى التجديد والنهوض بالعالم الإسلامي، ويعتبر من أكبر الدعاة إليها في الجزائر، كما استقبل أحد زعمائها الشيخ محمد عبده بحفاوة .
- ❖ أدخل العديد من الكتب الجديدة ذات القيمة العلمية والمعتز بها، حيث درس دلائل الإعجاز يعتبر بن سماية من المصلحين الأوائل الذين أثروا المناهج التعليمية في

¹¹عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، 1931- 1945 م، ص74.

المدرسة والمسجد حيث وأسرار البلاغة والعديد من الكتب الأخرى الجديدة، والتي أنتت بثمارها فيما بعد فانتشر تلاميذه في العمالات الجزائرية الثلاث أو حتى في أقطار شمال إفريقيا .

- ❖ جابه الطرق الصوفية الضالة التي كانت تنشر البدع والخرافات، ودعاهم للعودة إلى منهج الإسلام الصحيح، حيث نشر العديد من المقالات يهاجم الطريقين منها مقاله في جريدة كوكب إفريقيا أو كتابه التي اتلف من طرف أتباع الطريقة التيجانية.
- ❖ الشيخ يعتبر من زعماء كتلة المحافظين أمثال عبد القادر البجاوي و المولود بن الموهوب التي تبنت مذهب الإصلاح و التجديد على الطريقة الإسلامية الصحيحة.

المراجع:

- (1) سلسلة جهاد شعب الجزائر ، الشيخ عبد الحليم بن سماية . المكتبة الشاملة الحديثة. بدون سنة.
- (2) تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس والحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر ، مجلة الثقافة، عدد 68.
- (3) عادل نويهض، معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، 1. ط 2، 1980.
- (4) عبد الكريم بالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، 1931-1945، بدون سنة، 2009.
- (5) يسلي مقران ، الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل (1920-1945م) ، دارالأصل للطباعة والنشر والتوزيع، 2006.
- (6) عباس فرحات، ليل الاستعمار، ترأبو بكر النحال، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2009 .
- (7) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الحركة الوطنية، (1906-1945م)، دار المغرب الإسلامي، ج 2، بيروت، 2005.
- (8) يوسف مناصرة، دور النخبة الجزائرية في الحركة الوطنية بين الحربين، دار هومه، الجزائر، 2013.